طوماس ديوب
افريقيا وعلاقاتها بالعالم

يزداد العالم وعيا للدور الحاسم الذي لا بدّ ان تلعبه افريقيا في تطور البشرية ومصيرها اجمالا .

لقد أظهرت افريقيا ، لقرون عديدة ، عبقريتها في التنظيم ، واوجدت وحكمت على نحو رائع عددا كبيرا من المجتمعات والممالك والامبراطوريات — وذلك ابان سيادتها الكاملة — وبعد ذلك كله سقطت وخضعت لحكم اقوام اخرى .

ولا حاجة بنا الى الخوض في تفاصيل فظائع هذه العبودية الطويلة . حسبي ان استشهد بهذه العبارة الوجيزة للسيد نهرو ، رئيس وزراء الهند السابق : « لا اظن ان هناك ما هو افظع ، ما هو اشنع ، من مأساة افريقيا اللانهائية في خلال القرون القليلة الماضية ... وسواء اكانت عرقية ام سياسية ، فان هذه المأساة قائمة ، وجدير بآسيا ان تعين افريقيا ما استطاعت ، لاننا قارتان شقيقتان » .

وقد نجم عن هذه المأساة كسوف طويل للشخصية الافريقية ، وهبوط بالافريقي الى منزلة الانسان الخفيض القدر .

ولكن اذ راحت افريقيا تتعلم دروسا جديدة في مدرسة الحياة القاسية ، اكتشفت من جديد شخصيتها الاعمق وحاولت ان تعيد صوغها لكي تجابه متطلبات الحياة كما جعلت تراها من خلال تجربتها الاليمة .

لقد ادركت افريقيا ، وهي مستمرة في التأمل في مصيرها ، ان السبب في وقوعها ، في لحظة ما من تاريخها ، ضحية لتقنية بارعة في تدمير حياة البشر ، هو انها في المرحلة الاولى من تطورها المنعزل لم يخطر قط ببالها ان ثمة داعيا لتنمية فن القتل والتدمير الى هذا الحد من الكمال ، حتى ولو كان الغرض ضمان النفس وامانها .

واذ تابعت اجيال متعاقبة من الافريقيين التأمل في طبيعة واوجه مأساة افريقيا اللانهائية ، فقد ادركت ان العبودية الروحية شر العبوديات كلها ، فهي تؤدي الى خنق الشخصية . فحاولت الشخصية الافريقية منذ ذلك الحين ان تخلص نفسها من فوضى التعصبات العرقية التي وقعت فيها . وكما ان التجربة الانسانية لا تنتهي ، هكذا الشخصية تنمو دونما انقطاع : وهي موجهة بغير ما انحراف نحو تحقيق افضل امكانات افريقيا .

لا شك عندي في ان الاقوام جميعا لديها ما لدى غيرها من الطاقات لتنمية مواهبها وقدراتها عموما ، وان ما تحتاج اليه فقط هو الظروف الملائمة لتحويل هذه الطاقات الى حقائق . والافريقي الواعي يعلم ان الشعوب الاخرى في العالم لم تصنع الا من المادة نفسها التي صنع هو منها : كما انه يعلم انها كلها تتمتع بنفس الطبيعة البشرية. وان الطبيعة البشرية اينما كانت تتحكم بها سنن التطور ذاتها .

واني لاسرع هنا لاوضح ان ما اعنيه بالتطور هو تنمية مبدأ داخلي ، هو كامن اول الامر ، ثم يأخذ بالبروز تدريجيا الى ان يتجلى تماما . وكما ان حبة القمح قد حتم عليها ان تنمو وتكبر ، رغم صغر الحبة نفسها ، هكذا يحوي كل كائن بشري طيّ نفسه امكانات هائلة لتحقيق الذات .

ان الشخصية الافريقية ، في مرحلة تطورها الحالية ، تتسم اكثر ما تتسم بميزات ادرجتها في قائمة . ولكنني ، قبل ان اقدم للقارىء قائمة الميزات الهامة هذه ، اود ان ابين ان ما اعنيه بالشخصية هو الدمج الاسمى لكل ما فينا من ميول ، ومن مشاعر ، ومن افكار .

وفيما يلي اهم ما تتسم به الشخصية الافريقية من ميزات في هذه المرحلة من التطور :

اولا ، ارادة لا تنثني لان تكون ، بتمام حريتها ، هي نفسها كاملة في كل مضمار .

ثانيا ، ارادة راسخة لاعادة القيم الثقافية الافريقية الى مكانتها الحقة .

ثالثا ، التصميم على اثراء حضارتها بان تدخل فيها من الحضارات الاخرى تلك الميزات التي تبدو لها قمينة بالمساهمة في خلق حضارة عالمية .

رابعا ، قابلية هائلة للتكيف تبدو واضحة خلال تاريخ افريقيا كله .

خامسا ، حس شديد الرهافة للعدل في العلاقات البشرية .

سادسا ، روح صادقة عظيمة من التضامن الاخوي يشمل شعوب الارض كلها .

سابعا ، عزم فخور على المساهمة كليا في التبادل العالمي .

عندما يتحرر الافريقي ثانية ، فانه لن ينسى ان اقواما اخرى اوقعت به وهو على غير اهبة ، لانه لم يكن مزودا بكامل العدة عندما فرض عليه محك القوة من الخارج .

ولئن يستمر بكونه اخا للاناس الآخرين ، فانه يعتقد بضرورة كونه حذرا متأهبا لئلا يوقع به من جديد ، وذلك باكتساب المعرفة التامة بالتقنيات العصرية جميعها . فهو يحاول اللحاق بغيره في كل ميادين العلم .

والى ذلك ، فان افريقيا التي لا تيأس من بشر يومنا الراهن ، تبغي الاتصال بالشعوب المسالمة الحسنة النية التي لها نفس الرغبة في العدالة والاحترام المتبادل . غير ان في طريقها

عقبات خطيرة . وعلى افريقيا ان تدلل على فطنتها ونفاذ رؤيتها . وعليها ان تستطيع التمييز بين الصداقة الحقيقية وظواهر الاحسان الزائف .

اننا لنرجو مخلصين ان الزعماء الافارقة سيبذلون قصارى جهدهم للقيام بسهمهم في هذه المهمة بنجاح . بيد ان هذا الرجاء لا يعفي الافارقة المحبين للحرية من اليقظة الشديدة، ولا سيما عندما تكون سلامة افريقيا مهددة .

وروح التضامن التي يمتاز بها الافريقي كانت دائما تحدو به الى التعاون دونما تحفظ مع شتى انواع المنظمات التي يعتبرها مخلصة وانسانية . وعندما يصبح عضوا فيها ، فانه يبدي امانة مثالية حقا . غير انه عندما تتزعزع ثقته ونيته الحسنة بوقائع يتجلى فيها الخبث والاحتقار ، فانه يكف عن التعاون التام مع زملائه ، مهما يكونوا .

في هذه الآونة ، ما من حادث يقع في اي جزء من افريقيا الا وله مغزاه للافارقة عموما . لقد كان لجميعهم نفس النصيب لردح طويل من الزمن ، فاضحى لكل ما يحدث لجماعة من الافارقة اصداء عميقة بين الجماعات الاخرى كلها . ولذا فاننا نقول ما يلي لاخواننا الذين احاقت بهم محنة عسيرة : « اخوتنا في الكونغو ، نحن معكم في قلوبنا . ولكم منا العطف كله . اخوتنا في افريقيا ، انتم المضطهدين في اجزاء اخرى من افريقيا ، اخوتكم الآخرون جميعا يدا بيد معكم » . هذا التضامن العميق هو الذي يحدو بالافريقيين في كل مكان الى بذل كل جهد ممكن لايجاد تفاهم وتعاون اخويين في شتى انحاء القارة .

الا ان روح التضامن الافريقي ليست قاصرة على ابناء افريقيا . انها تمتد الى الشعوب قاطبة ، لان هذه الشعوب ايضا تنتمي الى الاسرة الانسانية الكبرى التي علينا ان نخدمها لمصلحة الجميع .

ولنقلب صفحات التاريخ لنرى روح التضامن هذه وهي في نشاطها . فاولئك الذين هم من اصل افريقي والذين اندمجوا في الامة الامريكية ، خدموا وطنهم الجديد ولم يخونوه قط. ايها الاخوة الامريكيون، ان افريقيا لفخورة بكم لامانتكم هذه، وانها لتشكركم من صميم قلبها . وفي حروب شتى ، بذل الافارقة الذين حاربوا تحت الوية اجنبية شتى قصارى جهدهم في خدمة المجتمع الذي اقسموا على الاخلاص له . ولنا ان نذكر المعارك التي وقعت في القارة الافريقية خلال الحرب العالمية الاولى ، والمعارك التي وقعت في اوربا وآسيا . غير ان معظمنا يعرفها .

لا تريد افريقيا ، في هذه المرحلة بالذات من تاريخها ، ان تتصرف بمقاديرها اقطار اخرى . وهي اذ تستعد لخدمة كل القضايا الكبرى ، وتتعاون مع الاقطار الاخرى ، لا ترضى بان تتغيب عن المباحثات التي تقرر الخط الذي يجب اتباعه عندما تنشأ الازمات

العالمية . وليس ذلك مسألة احترام للنفس وحسب ، بل انها مسألة تعاون صحيح بين اناس يحترم بعضهم البعض ويتمتعون بحقوق متساوية في عالم لا يتم انتعاشه في النهاية الا بروح العدالة .

ولما لم اكن سياسيا ، فانني لن اتقدم باي اقتراح سياسي بشأن افريقيا . ولكن لست احسب انني اتجرأ على الحقيقة حين اؤكد بملء الثقة ان تطور العلاقات في المستقبل بين افريقيا والعالم سيؤدي اما الى كارثة شاملة او الى التناغم في بناء حضارة عالمية ، والامر انما يعتمد على ما اذا كان هذا التطور سيتحقق بروح من الاحترام المتبادل او بروح من التسلط والازدراء .

وختاما ، لا اجد ما استشهد به خيرا من بضعة ابيات لشاعرنا الكبير سنغور ، تشهد على ان افريقيا لا تعرف شعورا معاديا لامم العالم الاخرى ، بل انها تتمنى لها السعادة نفسها التي تتوق هي اليها . سنغور يصلي اولا من اجل فرنسا . استمع اليه :

بارك هذا الشعب الذي يحطم قيوده ،
بارك هذا الشعب الذي استدار ليجابه
قطيعا جائعا من الاقوياء والمعذبين .

ومعه بارك شعوب اوربا كلها ، وكل
شعوب آسيا ، وكل شعوب
افريقيا وشعوب امريكا كلها ،

التي تنضح دما ومعاناة ؛ وفي وسط
ملايين الامواج هذه ، انظر الى
رؤوس شعبي المرتفع موجها .

واجعل ايديها الدافئة تطوق الارض
بحزام من الايدي الاخوية

تحت قوس قزح من سلامك .